عنترة والمُثُل العُليا

لم يشأ عنترة أن يسير في نفس الطريق التي كان يسير عليها بنو عمّه من العرب، بل كان يريد أن يكون سيّداً بين قومه. ورأينا كيف كان يعاني من عُقْدة اللَّون طيلة أيّام شبابه، وأنه منذ صباه أُولع بابنة عمّه عبلة التي اقترن اسمها به وبأفعاله الخالدة. والسوداني إذا نظر حوله، فإنّ بنات عمّه هنّ أوّل مَنْ يسترعين انتباهه، ولذلك فقد كان عنترة في حيرةٍ مِنْ أمره لا يدري إنْ كان التوفيق سيحالفه في زواجه بعبلة، أم لا.

عرف عنترة أنه إن أصبح عبداً خامل الذِّكر، فليس هناك مَنْ تلتفت أو تُعجب برجولته؛ لأن مخبره القاتم لا يسرّ العين، فكان لا بدّ له من أن يبرز إلى ميدان الفروسيّة المتلاطم حتى تعرفه النساء كبطلٍ لا يشقّ له غبار، وكان عنترة لذلك يجنّ في المعارك، ويرمي بنفسه في المخاطر، ويُقدم إذا رأى الإقدام عزماً،

ويُحجم إذا رأى الإحجام حزماً، ولا يدخل في موضع لا يرى منه مخرجاً، ويضرب الضعيف الجبان ضربةً يطير لها قلب الشجاع، فيثني عليه فيقتله، ثم يشتهر أمره بين الناس.

لعنترة في حياته جانبان، أحدهما: جانب الحرب، والآخر: جانب السِّلم. وكان عنترة قد عاهد نفسه على أن يكون متميّزاً في كِلْتا الحالتين: في السِّلم وفي الحرب. ونراه يقيّد نفسه بمُثُل بعيدة كلّ البُعْد عمّا فعله الآخرون. وتذكرني مُثُله وأهدافه الخلقية بالسوداني الذي يحمل حساسيته وشعوره بسودانيّته معه أينما سار.

بين صليل السيوف، وقعقعة الأسِنّة، وحمحمة الخيول، وصياح الفوارس نرى عنترة مهتمًّا بما يفعله، وكأنما كلّ أنظار المقاتلين متّجهة نحوه، أو كأنّ أبصار الغائبين عن المعركة متركّزة عليه، فنراه يتخيّر المواقف الحرجة ليمتاز بها عن غيره من الفوارس.

إنّ ما قيل من أنّ عنترة كان يبحث عن الضعيف الجبان ليُطير رأسه، ثم يعطف على الشجاع فيُثني عليه فيقتله، ليس بصحيح؛ إذ أنه من الصعب أن يكون المرء في معمعة ويأخذ على عاتقه البحث عن الجبناء ثم يأتي مِنْ بعدهم إلى الشجعان، فهذا القول في رأيي هراء لا

يُعْتدّ به؛ لأنه من الواضح أنّ عنترة كان يُلزم نفسه بأشياء مُهلكة، ويركب من الأُمور أخطرها في سبيل الاحتفاظ بسمعته طنّانة رنّانة.

وهو هنا يجد الفارس المدجّج الذي لا يقلّ شجاعة أو خبرة في القتال عنه، وقد فرّت الفرسان من أمامه حتى وقف أمام عنترة وجهاً لوجه، ولم يَخْشَ من صولة عنترة لأن قلبه قُدّ من حديد، ولم يشأ أن يستسلم لأنه معتدّ بنفسه، فخورٌ بشجاعته:

ومُدَجَّجٍ كَرِهَ الكُماةُ نزالَهُ
لا مُمعنٍ هرباً ولا مُستسلم
جادت له كفّي بعاجل طعنة
بمثقَّفٍ صَدْقِ الكَعُوب مقوَّم
برحيبة الفرغَيْن يهدي جَرسُها
بالليل مُعْتَسَّ الذئاب الضُرَّم
فشككتُ بالرمح الأصمّ ثيابَهُ
لَيْس الكريم على القنا بمحرَّم
فتركته جَزَر السباع ينشنه
يقضمن حسن بنانه والمعصم

هكذا نرى أنّ عنترة أوْفى لهذا الفارس حقّه من

الشجاعة والفروسية، فهو بطلٌ أخاف الأبطال؛ فتهيّبوا لقاءه، وابتعدوا عنه، ولو كان عنترة بطلاً لفعل مثلهم. غير أنّ عنترة من معدنٍ آخر، فهو سوداني عبسيّ رحل من السودان سفيراً ومندوباً في الجزيرة ليرفع علم السودان عالياً في ميادين الفروسية والحروب. وعنترة في لقائه لهذا البطل المدجّج كان عفيف اللّسان، فقد اعترف لعدوّه بالبطولة، واعترف للفرسان الذين كانوا معه بالشجاعة؛ فوصفهم بالكُماة، ثم كان متميّزاً في أخلاقيّاته إلى درجة جعلته يختار سلاحه الفتّاك بحرص، ثم وصف الرُّمح الذي استعمله بشيءٍ كثير من الاحترام ومنحه الأهمية التي يستحقّها، ولعلّه أسرف في وصف رمحه، ولكن وفاءً لهذا السلاح جعله يصفه بشيءٍ من التفصيل، وإلاّ كان ممّن يغمطون الأشياء حقّها، ثم نراه بعد أن شكّ الفارس بالرمح في قلبه، يبكي على هذا البطل الكريم الذي لم يكن قتله حراماً، ثم نراه يُمعن في تقدير مكانة هذا البطل بعد قتله، فيجعل السباع تنهش أطرافه ولم يذكر الذّئاب أو الثعالب أو الطيور؛ لأن البطل لا ينهشه إلا أبطال الحيوانات. ثم وصف بنانه بالحسن إمعاناً في تقدير خصمه، وإظهاراً للاحترام اللائق به.

هكذا كان عنترة الخصم، لا يجور على غيره من

الأعداء بالسّباب أو الحطّ من مقدارهم، أو التقليل من شأنهم، فقد تخلّق بالشهامة، وظهرت جليّة في علاقته بأعدائه وبسلاحه.

لم يكن عنترة فارساً يستعمل الرمح الأصمّ في قتاله فحسب، فهو وإن كان سيّداً في استعمال هذا السلاح، خاصة في مجابهة هذا الكميّ المدجّج، إلاّ أنه ماهر للغاية في استخدام السيف. ونراه يلتقي بفارس آخر لبس الدروع وتسربل بها، ولنقف قليلاً لنتعرّف على هذا البطل الذي التقى بعنترة في حَوْمة الوغى:

ومِشَكٌ سابغةٍ هتكتُ فروجَها
بالسيف عن حامي الحقيقة مُعْلَم
رَبذٍ يداه بالقداح إذا شتا
هَتَّاكُ غايات التِّجار ملوَّم
لما رآني قد نزلتُ أُريده
أبدى نواجذه لغير تبسّم
فطعنتُه بالرمح ثم علوتُه
بمهنَّد صافي الحديدة مِخْذَم

هذا فارسٌ آخر مستبسل لا يهاب الموت، ويبحث عن أضرابه من الأبطال لمُنازلتهم، ووجد في عنترة الخصم الذي يريده، وكأنّما كان عنترة على موعدٍ معه.

ونرى عنترة مرّة أخرى يوفي عدوّه حقّه من التقدير والاعتراف ببطولته، ونراه أيضاً يصف عدوّه لا بأنه حامي الحمى المعلم فحسب، بل بأنه كريم جواد بين الناس، يعطي عن سعة، ويُغدق على الآخرين في الجدب عندما تصفر الريح في الشتاء. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ هذا الفارس يجود بالخمر أيضاً ويشتريها بكراً ويوزّعها على راغبي الشرب. من هنا يظهر لنا أن عِفّة اللّسان عند عنترة لازمة خلقية لا تفارقه عند مقارعة الأبطال، وهو يذكر محاسن مَنْ قتلهم في ميدان الحرب، وفي ميدان السِّلم، فهم فرسان في حلبة الوَغَى وفي ساحة الشرب. وكان العرب يخلطون بين هذين الأمرين: الشراب والقتال. وفي رأيهم أن كِلاَ الأمرين يحتاج إلى كثيرٍ من الشجاعة والصبر والإقدام، وكأنما لم يكن الفارس معترفاً به إن لم يشترك في حومة الوَغى وفي حلبة المدام، وإننا نلمس هذه الحقيقة في قول امرىء القيس عن نفسه:

كأني لم أركبْ جواداً للذّة

ولم أتبطّنْ كاعباً ذات خلخال

ولم أسبأ الزّقَّ الرويَّ ولم أقل

لخيلي كُرّي كرّة بعد إجفال

وقديماً كان نقّاد العرب الأبكار يتحدّثون عن هذين البيتين بما يعرف كل قارىء للأدب، ولا بأس من أن نعيد ما قالوه، فقد ذكروا أن امرأ القيس قرن بين الخمر والكرّ على أنّهما لونان من ألوان الفروسية، ولكن بعض النقّاد قال بأنّ هذين البيتين كان يجب أن يكونا بهذه الكيفيّة:

كأني لم أركب جواداً ولم أقل
لخيلي كرّي كرّة بعد إجفال
ولم أسبأ الزقّ الرويَّ للذّة
ولم أتبطّن كاعباً ذات خلخال

وكان في رأيهم أنّ ركوب الخيل والفروسية إنما هما صنوان يسيران جنباً إلى جنب، وأنّ الخمر لذّة تجتمع مع لذة تبطن الكاعب ذات الخلخال. وفات على هؤلاء النقّاد أنّ امرأ القيس إنما يركب الخيل بحثاً عن اللّذائذ التي لا يجد مثيلاً لها إلا في المرأة الكاعب الحسناء، وأنه حين يسبأ زقّ الخمر فإنما يفعل فعل الفوارس عند الهجوم على أعدائهم بغرض الغنائم، فنراه يدخل ويشترك في ميدان الشراب كما يشترك في ميدان الحرب. وفي رأيه أن الخمر والكرّ من حالات الفروسية المجيدة.

وسار عنترة مسار امرىء القيس في هذا النوع من الفروسية واللذّة، فهو يغشى مجالس الشراب ويشارك أقرانه في لَهْوهم العابث دون أن يفقد سيطرته على أعصابه:

ولقد شربتُ من المدامة بعدما
ركد الهواجر بالمشُوف المعلم
بـزُجـاجـة صـفـراءَ ذاتِ أسِـرَّةٍ
قُرِنَتْ بأزهر في الشمال مُفدّم
فـإذا شـربـتُ فـإنّـني مُـسـتـهـلك
مـالـي وعـرضـي وافـر لـم يُـكْـلَـم
وإذا صحوتُ فما أقصّر عن ندى
وكما علمت شمائلي وتكرّمي

فهو يشرب مع الأقران ويجود بما لديه، ولكن لا يصل في سُكْره إلى الطيش الذي قد يسبّب له المساءة مِنْ أقرانه، ثم هو جواد في صحوه وسُكره.

وأودّ أن أعترف هنا بأنّني أجد في قول عنترة في هذه الشطرة الأخيرة لذّة ومتعة قلّ أن أجدها في كثيرٍ من الشعر، وحاولت جَهْدي أن أجد سبباً لروعتها، وإني لأعجب بيني وبين نفسي إن كان مصدر المتعة هو أنّ قوله: «وكما علمت شمائلي وتكرّمي» مسك الختام

للصّفات التي أسبغها على نفسه، وأراه وكأنه تعب من ذكر حُسن الشمائل التي يتّصف بها، فاختصر الموقف بهذه الكلمات. ولعلّ هذا هو ما يُطلق عليه النقّاد الغربيون: «الثقل الذي يوازي بين الكفّتين». وإن إحدى الكفّتين لا شكّ قد امتلأت بافتخار عنترة المثالي حتى ختم ذلك الفخر بهذه الجملة الرائعة.

هذا هو عنترة الفارس الكريم، سواء أسكر أم لم يسكر، ولا شكّ أن كرمه هذا يبدّد ثروته، وهو الذي يأنف أن يقتسم الغنائم. ولا رَيْب في أنّ ذلك سيُورده مورد الجوع والفقر. إنه يبدّد المال ولا يخشى غوائل الجوع أو الموت؛ لأنه صبورٌ على المنية والفقر، ـ لا يشكو ولا يضعف، وما أشبه موقفه هذا بموقف إخوانه السودانيّين سنة ١٣٠٦هـ ـ، عندما هاجمتهم المجاعة، وعضّتهم بأنيابها، فلم يبكوا ولم يتسوّلوا، بل قفلوا أنفسهم في بيوتهم وسمّروها عليهم وماتوا وهم بداخلها وقد حفظوا ماء وجههم، فمَنْ غيرهم وغير عنترة يستطيع أن يفعل ذلك. وعنترة هنا يصبر صبر إخوانه، بالرغم مما حدث له، فقد:

جاءت زبيبة في الظلام تلومني
خوفاً عليّ من ازدحام الجحفل

بكَرتْ تُخوّفني الحتوفَ كأنّني
أصبحتُ عن غرض الحُتوف بمعزل
فأجَبْتُها أنّ المنيّة منهل
لا بدّ أن أُسْقَى بكأس المَنْهل
كُفّي ملامك لا أبا لك واعلمي
أني امرؤٌ سأموت إن لم أُقْتل
ولقد أبيتُ على الطّوي وأظلّه
حتى أنال به كريم المأكل

عظيمٌ أنت يا عنترة، هذه هي الرجولة السودانية الحقّة التي تتمثّل لنا فيه، فهو استخفّ بالموت، وبمكاره الحياة، ولم يعد يخشى شيئاً؛ لأن الموت غاية كل حيّ، وأنه طالما كان على ظهر جواده، وقائمُ سيفه بيده استخلص قوّته قسراً من غيره، ولم يعد هو ذلك العبد الحقير الذي كان يرعى الإبل في صباه ويقبل من أسياده ما يقدّمونه له من طعام وشراب. لقد وطّن نفسه على أن يعيش أبيًّا تتألّق مكارمه الأخلاقية في سماء الجزيرة العربية الذّاكنة، وهو لم يَقْبل من أُمّه هذا الخوف عليه من المَنايا، وهي الأُمّ التي تضرع لكي لا يُقتل ابنها؛ فجاءت إليه في اللّيل البهيم، وقد أصبحوا ثلاث ليال ممعنة في الظلام: زبيبة وعنترة واللّيل. وقد

كاد أن يكتنفهم ليلٌ رابع هو الموت، وهذا بيت مُمعن في الظلام صوّره لنا عنترة لنعيش معه في غياهب الظُلمة، ولكي نحسّ بالخوف الذي كان يسيطر على أُمّه وهي تنصحه بألاّ يُمعن في الخروج إلى الحرب والنِّزال، فهي تريده لنفسها ليبقى فتملأ عينها من سواده وروعته. بَيْد أن التحدّي الذي ملك عليه قلبه جعله يؤمن بحتمية الموت. وما أشبه هذا الشعور بشعور السودانيّين في حروبهم ضدّ المستعمرين، وخاصة في عهد المهديّة، لقد كان عنترة مثلاً حيًّا للملايين من السودانيّين الذين حاربوا واستماتوا وماتوا مؤمنين بأنه «هالكٌ كل من يسعى وينتعل». وأين المفرّ إذا حان الحَيْن؟ ثم أوضح عنترة لأُمّه فلسفته في الحياة، أو على الأصح في الموت، وطلب منها أن تكفّ عن ملامته، ولا شكّ أنها قضت ليلة ليلاء تبكي خوفاً على ولدها الفارس دون أن تشعر بقلقها عليه بعد حديثه لها، فيا لها من أُمّ قاست الأمرَّيْن من فروسية ولدها.

هذه المحاورة التي كانت بين عنترة وأُمّه مفعمة بالمشاعر الإنسانية والعواطف التي تملأ شغاف قلب الأُمّ على وليدها مهما قويت شوكته أو اشتدّ خطره على الآخرين. وقد ذهبت الأُمّ إلى ولدها في هجعة اللّيل عندما تنام كل الأعين، لأنها تعلم أن حوارها

معه لن يُثنيه عن عزمه، وربما أدّى إلى خصام بينها وبينه. ثم إنها لم تكن ترغب في أن يُشاهدهما أحد وهي تمضي إليه محاولة أن تُثنيه عن القتال، فقد كانت تخاف عليه مما سيقوله الناس عنه إن هي أثنته عن عزمه ونجحت في ذلك، ولهذا فقد اتّخذت من اللّيل ستاراً لحديثها معه، وكانت تتمنى أن تصفو نفسه كصفاء اللّيل فيَقْبل منها النُّصح ويبقى بعيداً عن القتال.

ولكن عنترة بما يعتزّ به من خُلُقٍ عالٍ، ورغبة في التضحية يرفض هذا الرجاء وينفعل، بل ويُجيبها بصوتٍ عالٍ كالطبل:

فَاقْنَيْ حياءك لا أبا لَكِ واعلمي
أني امرؤٌ سأموت إن لم أُقْتل

وتمضي زبيبة إلى خبائها وتكاد حبّات قلبها تتناثر من الأسى الذي يتملّكها.

لَكِ الله يا زبيبة! لَكَمْ تألّمت وشقيت في أرض غير أرضك، وقوم غير قومك!

لكأني بعنترة يواصل حديثه مع أُمه بعد ذلك، وهو يمجد أفعاله:

إن كنتُ في عدد العبيد فهمّتي
فوق الثُّريا والسِّماك الأعزل
أو أنْكَرَتْ فرسان عبس نسبتي
فسِنان رمحي والحسام يقرُّ لي
وبذا بلي ومهنّدي نلت العُلا
لا بالقرابة والعديد الأجزل
ورميتُ رمحي في العجاج فخاضه
والنار تقدح من شفار الأنْصُل
خاض العجاج محجَّلاً حتى إذا
شهد الوقيعة عاد غير محجَّل

هنا يكلّف عنترة جواده شتّى المخاطر، فهو يزجّ به في المعركة نظيفاً محجّلاً، فما تلبث الدماء أن تسيل في الأرض كالبحر حتى تطغى على قوائم الجواد، فتغرقها وتخضبها. وهنالك على أرض المعركة يتألّق عنترة رغم سواده مع تألّق السيوف بأفعاله المجيدة:

إن كنت في عدد العبيد فهمّتي
فوق الثُّريّا والسِّماك الأعزل

ولو كان هذا هو كل نصيب عنترة في الحرب، لكفاه فخراً. ولكنه لا يرضى أن يكون مثله كمثل جندي

في معركة الجزيرة العربية. كان همّ العرب الأكبر في ذلك الوقت أن يشنّوا الإغارات على بعضهم بعضاً لضيق العيش في الجزيرة.

وكانوا يقتسمون الغنائم والسّبايا، ومما لا رَيْب فيه أن كل عربيّ كان يتلهّف لأخذ أكبر نصيب من تلك الأسلاب. وكان العربي يتصيّد المغانم متربّصاً لها يريد أن يستوثق من أنه لم يظلم في القسمة؛ إذ أنه خاطر بنفسه في سبيل الحصول على قُوته، فلا يمكن أن ينتظر منه أن يَتَهاون في نصيبه. أمّا عنترة، فله شيمة السوداني العفيف الذي ينسى نفسه، ويذكر حلفاءه أثناء المعركة، فهو يعطي لكل من حلفائه نصيبه، ويذكر لنا التقسيم الذي ترتضيه نفسه:

«لي النفوس وللطير اللُّحوم وللوحش العظام وللخيالة السلبُ».

وقد نتساءل عن الدوافع التي جعلت عنترة يعفّ عن الوقوف مع غيره لأخذ نصيبه من الأسلاب. هذه الدوافع تبدو ظاهرة من مُعلّقته أيضاً، فهو لا يقاتل من أجل أسباب مادية عاجلة، ولكن يكتفي بالصِّيت والزغاريد. إنه كفرسان القرون الوسطى يُحارب باسم حبيبته متودّداً مسترضياً.

في تلك القصيدة الرائعة نجد عنترة قد ملك زمام الأسلوب حتى جعل ألفاظه عذبة الترنيم. ونرى فيها صوراً تعكس أخلاق صاحبها كمرآة صافية؛ فعنترة يُخبرنا في مُعلّقته بالكثير، ويسرد بعض أفعاله لعبلة مستشهداً بمن كانوا معه في المعارك. ونجده يهتمّ بأمرٍ واحد كان غريباً أن يهتمّ به دون غيره؛ لأنه أثار موضوعاً هامًّا هو موضوع الغنائم، وأوضح أنه لا يشترك في قتال رغبة في مغنم يقتسمه، أو أسلاب يأخذها، إنما كان يحارب من أجل نصرة الآخرين والوقوف مع زملائه جنباً إلى جنب في سبيل المبادىء، تلك المبادىء التي تنصّ على أن يتكاتف الجميع في وقت الشدّة. ولذلك، فهو يوضح لعبلة ما كان يفعله ويخاطبها:

هلاّ سألتِ الخيل يا ابنة مالكِ

إن كنتِ جاهلةً بما لم تعلمي

يُخبرك مَنْ شهد الوقيعة أنني

أغشى الوغى وأعفّ عند المغنم

إنه في سلوكه هذا مفرد علم بين أعراب الجزيرة الذين كانوا يعيشون إلى حدٍّ بعيد من أجل السّلب والنَّهب، والإغارة لاقتسام الغنائم. أما أخونا عنترة، فهو

لا يأبه بذلك، ولا ينتظر توزيع الغنائم، بل يمضي لسبيله في الخيام وهو مخضب بدم الفوارس يقطر الدم من قراب حسامه وسنان رمحه.

قد نسمّي هذه الخصلة عزّة نفس عند عنترة، ولكنّها من أين جاءت وكيف ورثها، أم كيف اهتدى إلى التخلّق بها في وقتٍ كان فيه اقتسام الغنائم أهمّ ما يسيطر على النفوس من خصال. أترى عنترة كان مجدّداً للمثل العليا في الجزيرة العربية؟ أتراه لم يكن يؤمن بما لديهم من مُثُل؟ وما الذي جعله يستهجن هذه الخِلال؟

لا رَيْب في أنّ ذلك يرجع إلى عهد طفولته يوم كان يسعى إلى إقامة مجد مؤثل له، وكان غيره من العبيد يفكّر في الإبل التي يرعاها يوم كان عنترة يتعلّم الفروسية ويتدرّب على فنونها، وكان أقرانه مستكينين قانعين بما هم فيه. وكانت شخصيته القيادية هي التي دلّته على أن يجعل لنفسه أسلوباً غير أسلوب غيره لا من العبيد فحسب، ولكن حتى سادتهم. لكل هذه الأسباب مجتمعةً رفض عنترة أن يقتسم الغنائم مع الآخرين، وضرب لذلك مثلاً جديداً لأخلاق الفروسية في خضمّ الجزيرة الجاهلي.

من الأمثلة الرائعة التي يضربها عنترة في الأخلاق تلك العلاقة الحميمة التي كانت بينه وبين جواده

الأدهم. والجواد من حيث هو كان قد شغل حيّزاً كبيراً في الشعر العربي، وتفنّن شعراء لغة الضاد في وصفه والحديث عنه، ومِنْ أوّل مَنْ أوفى الجواد حقّه امرؤ القيس في مُعلّقته؛ إذ أن جواده:

ضليع إذا استدبرته سدّ فرجه
بضافٍ فُوَيْق الأرض ليس بأعزل

ومضى امرؤ القيس في تصوير شكله، وإبراز قوّته حتى وجدنا أنفسنا نحبّ ذلك الجواد ونعتزّ بامتلاكنا له؛ لأنه:

مكرٌ مفرٌ مقبلٍ مدبرٍ معاً
كجلمود صخرٍ حطّه السيل من عَلِ

ومن الشعراء الذين تغنوا في وصف الجواد أبو تمام، ويبدو أنه كان مغرماً بالجياد، ولعلّه كان يُديم النظر فيها، ويعرف من أسرارها ما لا يعرفه الكثيرون، فهذا جواد:

ما مُقْرِبٌ يختال في أشطانه
ملآن من صَلف به وتَلَهْوُقِ
بحوافر حُفْرٍ وصُلْب صُلَّبٍ
وأشاعر شُعْرٍ وخُلْقٍ أخلق

وبشُعْلَة نَبِذٍ كأنّ فُلولَها
في صهوتَيْه بدءُ شيب المِفْرق
ذو أَولقٍ تحت العجاج وإنّما
من صحةٍ إفراط ذاك الأوْلق
تغرى العيون به فيُفْلق شاعر
في نعته وصفاً وليس بمفلق
بمصعّدٍ من نعته ومصوِّبٍ
ومُجمّع من حسنه ومفرق
صلتانُ يبسطُ إن عدا أو إن ردى
في الأرض باعاً منه ليس بضيِّق
وتَطَرّقُ الغلواءُ منه إذا عدا
والكبرياء له بغير تطرّق
مُسْوَدُّ شَطرٍ مثل ما اسودَّ الدّجى
مبيضّ شطر كابيضاض المِهْرق

أما العلاقة بين عنترة وبين جواده، فهي تفوق كثيراً هذه الصورة الحسّية. إن ما بين عنترة وجواده علاقة سامية فقد زَبَنتهما الحرب سويًّا، وجمعت المعامع بينهما في عراك مع الأعداء. وكان على كلٍّ منهما أن يقوم بنصيبه من أجل النصر ـ هذا يحمل صاحبه فوق ظهره ـ وهذا يحمل على الأعداء فوق صهوة صاحبه،

ويبزّ كل منهما الأقران في حلبة المعارك وكلاهما أدهم الجلد ـ الفارس والفرس ـ وكلاهما يتقدَّم بإصرار لملاقاة الأعداء، ويصاب كل منهما بالجراح من أسِنَّة الرماح، فتثير هذه الأفعال أشجان عنترة على جواده، وتذوب كبده حسرةً على ما نال الأدهم من طعن وألم. وهنالك عندما كان الفرسان:

يدعون عنتر والرماح كأنها
أشطان بئرٍ في لَبان الأدهم
ما زلتُ أرميهم بثُغْرةِ نحره
ولَبانه حتى تسربل بالدم
فازورَّ من وقع القنا بلبانه
وشكا إليَّ بعبرة وتحمْحُم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى
ولكان لو علم الكلام مكلِّمي

إن المشهد الإنساني العاطفي الذي يبدو في هذه اللَّوحة الفنية الرائعة يظهر العلاقة العاطفية بين الفارس والفرس، وفي هذه العلاقة يبدو ارتباط المصير بينهما، وهذه علاقة لم نرها في أيٍّ من الشعراء أو الفوارس لأنها خرجت عن إعجاب رجل بحيوان، كما أنها لم تكن جمالاً حسيًا لحيوان يبرزه شاعر، إنما هي ارتباط

بوحدة الهدف بين شقيقين يفهم كلّ منهما محاورة أخيه، وشكاة شقيقه، فهذا الجواد يتألّم من كثرة الجراح فيزورّ من وَقْع القنا ولكنه لا يفرّ لأنه جُبِل على صدام رماح الفرسان، فلما أثخنته الجراح شكا لرفيقه في الكفاح بعبرة وتحمحم.

عندما نقرأ هذه الكلمات تؤثر في نفوسنا تأثيراً قويًا، ويدوم هذا التأثير إلى الأبد ويحيا بيننا هذا الجواد بلحمه ودمه المُنْساب من صدره.

obeikandl.com